باسم الآب والابن والروح القدس

إله واحد آمين

كتاب ميامر مار إفرآم السرياني

المقالة الأولى[1]

رسالة إلى يوحنا الراهب فى الصبر والحذر أن

لا ينخدع بالأفكار فى طلب السياحة والعفة

قد وعظنا تادرس المتورع كثيراً بعظاتٍ كثيرة ألا يبتعد عن موضعه ، وما أمكننا أن نقنعه . بل قال أنا : إن أردت أن تعيننى ، وتخلص بعد اللـه نفسى فأرسلنى إلى ديرك .

فأجبته : يا هذا إن اهتمام الدير قد فوضته إلى يوحنا الأخ وبدون رأيه لا يمكننى أن آمر أحداً بسكناه فقد فعلت فعلاً حسناً إذ قبلت الأخ السالف ذكره لأنه حين عاد إلينا أخبرنا عن أى تعطف أوضحته له .

لأن مثل هؤلاء الذين أحبوا الرب ينبغى أن يكونوا عندك مكرمين أكثر من الأب والأم والإخوة والأخوات والمرأة والأولاد والأنسباء والأصدقاء .

فلقد صنعت حسناً لأنك خصصت نفسك للأعمال الحسنة ولا سيما إذ صرت قدوة للإخوة الساكنين معك مثل الأمر الذى اتضح فى المسيح حين صنعه إذ رفع تلاميذه إلى سمو التواضع .

فقال : إنما أعطيتكم نموذجاً لتعملوا أنتم نظيره وذلك لكى الذين لا يقنعهم القول يقنعهم الفعل .

وبولس الرسول يعظ قائلاً : " صيروا متشبهين بى كما تشبهت أنا بالمسيح " .

فلا تتهاونوا أنتم بالخدمة الروحانية ، ولا تكونوا بحجة الأمور الجسدانية متوانين فى صلواتكم لأن أقوال الرب إذا درست ورُتلت دائماً تغذى النفس، وتحفظها وتوقى الجسد وتؤدبهُ ، وتطرد الشياطين وترهبهم، وتجعل فى النفس سكوناً عظيماً .

أما عن الذين ابتدءوا بأفعال تفوق طاقتهم فقد سقطوا فى تجارب لانَهاية لها فحسب أقوال بولس الرسول : " لا يرتأى الإنسان فوق ما لا ينبغى أن يرتأى بل يرتأى إلى التعقل " .

واسمع من الحكيم الذى قال : " لا تصير صديقاً كبيراً ولا تحاكم حكماً زائداً لئلا تُدهش .

لأنه أتفق فى هذه الأيام أن قوماً من الإخوة تركوا قلاليهم ومضوا إلى الأرض القفرة التى لا ماء فيها ، ولا تمر لها فزجوا ذواتِهم فيها بعد أن وُعِظوا عظات كثيرة من الآباء والإخوة ولم يذعنوا لرأيهم قائلين :

" نحنُ نمضى لنكون سواحاً " .

فلما وصلوا إلى البرية القاحلة جداً وعاينوا أن الأرض التى لا تُسلك قد اكتنفت ذواتِهم صاروا يستصعبون الأمر جداً ثم حاولوا أن يعودوا إلى الأرض المسكونة فلم يقدروا أن يُخرجوا ذواتِهم من البرية الصعبة لأنَهم لم يوصلوا إليها بسهولة .

فأشتد عليهم الجوع والعطش والحر، وجلسوا مكتئبين وظامئ النفس .

---

[1] كتاب: مقالات مار إفرآم ملفان الكنائس السورية ومعلم الأرثوذكسيين أجمع

وقف على طبعه أحد رهبان دير السيدة العذراء البراموس في برية الأنبا مقاريوس
طبع سنة ١٨٩٢

ثم بتدبير من العناية الإلهية صادفهم قوم وهم قد قاربت أنفسهم أن تنتزع منهم فوضعوهم على دوابِهم وحملوهم إلى المواضع المسكونة .

ومجموعة منهم ماتوا وأكل أجسادهم الطير والوحوش والذين نجوا لبثوا مرضى مدة طويلة فعند ذلك عرفوا بالخبرة ألا يعملوا شيئاً بغير مشورة .

وكثيرين إذ كان فيهم فكر العظمة وذهبوا إلى أرض لا ثمر فيها ولا ماء فسببوا لأنفسهم موتاً محققاً ؛ وآخرون إذ لم يريدوا أن يطيعوا ولم يحتملوا أن يخدموا إخوتِهم سقطوا فى هذا الأمر نفسه، وآخرون إذ لم يرتضوا أن يعملوا بأيديهم فسدوا .

وكذلك آخرون هُزئ بِهم من فكر الاعتداد بالذات والتشامخ بالسبح الباطل، فتصيدوا المديح من السامعين: " أنَهم قد صاروا سواحاً " ؛ وإذ لم يفكروا فى الأتعاب التى تصادفهم ألقوا أنفسهم فى هذه المعاطب نفسها .

فلا ينبغى الآن أيها الحبيب أن ننقاد لأفكارنا بلا تمييز ، لأننا نحتاج كثيراً أن كل واحد منا يعرف مقداره ويتواضع لقريبه بمحبة اللـه .

وإن شعر أحد أنه قد قوَّم الفضيلة ومسك الآلام وتملك على الشهوات فلا يثق هكذا برأيه ، لئلا يقال عنه الفصل المكتوب : " أن الملك الجسور يسقط فى المساوئ وملاك الرب ينجيه " .

لكن ربما يغتر أحد فيقول : وكيف نجد قوماً من الآباء قد قوموا هذه الفضيلة ؟

فقد احتجنا أن نظهر لكم هذه الشهادة من أخبار سير الآباء القديسين، ونوضح أن الآباء القديسين ما عملوا شيئاً عبثاً ولا جزافاً .

لأنه قد حكي عن مقاريوس الراهب أنه قال : بينما أنا كنت جالساً فى قلايتى بالاسقيط آذتنى الأفكار قائلة :

امضى إلى داخل البرية وافهم ماذا تعاين هناك .

فلبثَ محارباً للفكر خمسة سنوات خائفاً أن يكون هذا الفكر من الشيطان .

فأبصِر فهم الرجل أنه لم ينقاد للفكر ولا عمل به بل لبث يميزه صائماً ساهراً مصلياً ليعرف إن كان من الشيطان أم لا .

" فنحنُ إذا جاء إلينا الفكر ونحن ثابتون فننفرد وننعزل ولسنا نميزه مصلين بتوجع قلب ، بل ولا إذا وعِظنا من آخرين نقتنع ونخضع لرأيهم فلذلك يسبينا المعاند بسهولة " .

ثم لما ثبت الفكر ودام خرج إلى البرية فصادف هناك بحيرة مياه وجزيرة فى وسطها فإذ بأنعام البرية قد جاءت تشرب منها ورأى فى وسطهم رجلين مجردين .

فبعد أن سلما على بعضهما بعضاً . قال لهما مقاريوس : كيف يمكننى أن أصير راهباً .

فقال له : إن لم يزهد أحد فى الأشياء التى للعالم كلها مبتعداً عنها فلا يستطيع أن يكون راهباً .

فقال لهما : أنا ضعيف ولا أستطيع أن أكون مثلكما .

فقال له : إن لم يمكنك أن تصير مثلنا فأجلس فى قلايتك وأبكِ على خطاياك .

يا لجسامة تواضع الإنسان الإلهى ويا لسمو فهم النفس المتورعة ؛ من قد أوضح مقدار تلك النصرات الممدوحة ومثل عِظم جسامتها ؛ فلم يوضح من ذاته أنه مستحق للأمر لكن قال لهما :

" أنا ضعيف ولا أستطيع أن أكون مثلكما " .

فنحن لا اضطهاد قام علينا ولا اضطهدنا أحد ومع ذلك نسلك بسيرتنا بالتهجم والاعتداد بالذات ؛ ونبتدئ بأفعال تفوق حدودنا كمجربين الرب الإله . الأمر الذى هو مُرهَب جداً .

الويل للإنسان المتوكل على قوته ونسكه أو على ذكائه ، ولا يكون اتكاله على اللـه لأن منه وحده العزة والقوة .

وإن أطلعنا على سيرة أنطونيوس الراهب نجده صانعاً كل أفعاله من استعلان إلهى .

ألم يجلس في دير ؟ أو ما احتاج ملابس ؟ أو ما أكل خبزاً ؟ أو ما عمل بيديه ؟ أو ما أقتنى تلاميذ ؟ أما كفنوه مائتاً ودفنوه ؟ أو هل استعمل المغبوط أنطونيوس وحده هذه السيرة ؟

بل وباقى الآباء الذين أكمل الله بِهم آيات واشفيه لأنَهم كانوا كالمصابيح البهية مشهورين بالفضائل .

فلنسر نحن يا أحبائي سيرتَهم ومذهبهم ونسلك فى الطريقة الملوكية غير جانحين إلى يمينها ولا إلى يسارها .

فلنثابر على السكوت ، الصوم ، السهر ، الصلاة ، الدموع ، الصلوات الجامعة ، عمل اليد ، مخاطبة الآباء القديسين ، إطاعة الحق ، استماع الكتب الإلهية لكى لا يصير فكرنا بوراً عاشباً بالآلام .

ولنوقف ذاتنا مخصوصاً لنستحق التقرب من الأسرار المقدسة الطاهرة ، لكى تتنظف أنفسنا من الأفكار النجسة المتولدة ، ويسكن الرب فينا فينفذنا من الشيطان .

وقبل هذه كلها فلنحفظ المحبة الصافية بعضنا لبعض وللكل ، لأنه من جهة محبتنا للقريب يقتنى الإنسان المكافئة أو العقاب . لأن القائل صادق :

" إنه إذا صنعتم بأحد إخوتى هؤلاء المحتقرين شيئاً فبى قد صنعتم .

وقال للآخرين : " إذا لم تعملوا بأحد إخوتى هؤلاء المحتقرين شيئاً فبى لم تفعلوا ، فيذهب هؤلاء إلى العذاب الخالد ويمضى الصديقون إلى الحياة الأبدية .

إن القدماء كانوا يذبحون عجولاً ، وكباشاً ، وخرافاً كلها نقية لا عيب فيها ويقدمونَها تقدمة ، فلنقدم نحن جسمنا للرب بالروح القدس ولا ننجسه بالأفعال المحذورة ولا ندنسه بفكر ما لئلا تصير ذبيحتنا غير مقبولة.

وبأية حاله يجب أن نقتنى القداسة فيثاب الذين لهم عقل العين المستفيقة، وذكر الله الذى شعاعاته تضيء لكل قلب .

فأما الذين هم ضعفاء فى مثل هذا الفكر فهم محتاجون إلى نماذج ومقاييس ليقتنوا مثل هذه الفضيلة ويقومونَها، فلتكن مقاييسنا مثل هذه .

إن الذين يتناظرون فى الحروب العالمية ، تنصب لهم صور على الحيطان وفى الألواح ينقش فيها رواية الحرب ، كيف بعض يمدون قسياً وبعض مجروحون ، وقوم قد هربوا ، وقوم يقاتلون بأيديهم وسيوفهم مجردة ، ويحصدون مصارعيهم كحصاد السنبل .

وهذه المقاييس يصنعونَها ليعرفوا الذين يصيرون إليها فيما بعد ، ولذكر المفضلين على من بارزهم فى الحرب ، وكثيرون صوروا جهاد القديسين فى هياكل الصلوات لكى يغيروا منها التى قلوبِهم قاسية ولتفريح الناظرين إليها

فإذاً سيرتنا سوف تكتب وتصور وتنصب فى علوٍ شاهق ليعاينها الكل فاحرصوا ، بل فلنحرص أن نقوم الفضيلة لئلا تكون فى أيقونتنا شيء مذموم وغير ملائم ، لأنه قبيح بالحقيقة أن يُبصَر فى أيقونة رجل يعانق امرأة وأقبح منه إن كان من المظنونين أنه لابس زى التدبير الحسن .

فإن كان ذلك فهو على رأى القائل : ذكور يعملون الفحشاء بذكور، فمن هو يا ترى يجترئ أن يعاين تلك الأيقونة ، لأنه منظر يجب أن يُهرب منه .

فإذ نعلم يقيناً أن عذاباً لا يُحتمل يحل بمن يُوجد فى مثل هذا الهوان فلنهتم أن تصير وضع الرواية الواصفة أخبارنا وإتقانِها حسنة وممدوحة ناهضة إلى فعل الصالحات لمن يصادف جمالها ، ولا نصور فيها شيئاً رديئاً لا يختص بالفضيلة .

لأن الرواية المسندة من أهل سدوم منتصبة انتصاباً لا يضمحل مخبرة كيف أطاف أولئك الفجار النهمة شهوتِهم بمنزل الصديق إلى أن ضُربوا بضربة فقد النظر واحترقوا بالمطر النارى وترمدوا هم وأرضهم التى عملوا فوقها المجامعات النفاقية .

فهذه الرواية كأيقونة ما مملوءة خوفاً وضعها الإله خالقنا فى ضمير كل واحد منا حتى إذا نظرنا مثل تلك الأمثال الرادعة نبعد عن الأفعال الرديئة.

فأما الذين يغمضون أعينهم من معاينة تلك الرواية التى نُصبت لنا وعظاً فأولئك يتهورون بسهولة فى هوة اللذات .

أنت إذاً فليكن ناظر ذهنك مقترناً بمثل هذه المعاينة لكى تصدم بالخوف الآلام النجسة وتطمر بانتظار السخط الآلام المضطرمة لأن من يتصور ذلك الرجز المسير من الله فلا يجزع ولا ينقبض ذهنه إن لم يستعمل هذه المعاينة استعمالاً زائداً .

أما أنا الوانى لما نصبت فى عقلى هذه الرواية تنهدت ووضعت وجهى بين ركبتى وبكيت لما رأيت تصور جريان تلك النار المتداركة هولها والأرض نفسها مضطرمة وكلها مملوءة قتاماً ودخاناً .

وقاتنيها قد ذابوا كالشمع ، أترى لا تستطيع النموذجات والأحداث السالف حدوثها أن تعزل النفس الصخرية وتلينها .

فمنذ الآن فلنتفرس فى هذه الرواية بمداومة ، بل فلنتأملها بلا فتور لكي ما بالحرص فى الأشياء المفضلة نَهرب ونفلت من حيرة النقم السابق ذكرها لأن التوانى ينشئ عدم الخشية ومنها جميعاً تنشأ العادة ، والذين يصيرون فى عادة السير يصعب انتشالهم منها وهم جانحون كل حين إلى فساد الثمر الروحانى .

وينبغى أيضاً أن نتذكر يوسف كأنه فى أيقونة ونتفطن فى أمره كيف اجتذبته المصرية استخرجته إليها ، أما هو المحب لله فترك ثوبه وهرب من افتعال الدنس .

بل ونعاين الشيخين اللذين كان فى بابل فى ذهننا كأيقونة ، كيف استدعيا سوسنة المغبوطة إلى الفعل النجس فاستعملت هى فكراً مؤمناً شجاعاً فحطمتهما .

هكذا فلنجاهد نحن بثبات ولا سيما إذ نتأكد أنه ليس مكتوماً إلا ويظهر ، لكى يثنى علينا بتثنية الفضيلة والمدح كى نوجد مع الممدوحين لا مع المذمومين .

فأما عن الذين يلتمسون استعلام كيف يتصرفون مع الإخوة ويسترضون الإله الحقيقى .

فإذا صليتم عنا سنرسم لكم أخيراً بمؤزرة النعمة إيانا مهما أمكن أن يقال فى هذا المعنى ؛ وليكن بيننا وبينكم الرب عين الحياة الممطر سروراً وقداسه وسلامة ورجاء صالحاً على الذين يبتغونه بالحقيقة .

قبل عنى الإخوة الذين معك ، تقبلك الإخوة الذين هنا .